

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بلوغ المرام من كتاب نظام الإسلام

(ح79) كتاب: "طه حسين مفكرا" (ج2)

الحمد لله ذي الطول والعام، والفضل والإكرام، والرحمن الذي لا يضام، والعزة التي لا تُرام، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الأنام، حاتم الرسل العظام، وآله وصحبه وأتباعه الكرام، الذين طبّقوا نظام الإسلام، والتزموا بأحكامه أيما التزام، فاجعلنا اللهم معهم، واحشُرنا في زمرةهم، وثبتنا إلى أن نلقاك يوم تزل الأقدام يوم الترحام.

أيها المؤمنون:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: نتابع معكم سلسلة حلقات كتابنا "بلوغ المرام من كتاب نظام الإسلام" ومع الحلقة التاسعة والسبعين، وعنوانها: "كتاب طه حسين مفكرا". نتأمل فيها ما جاء في الصفحتين: الرابعة والستين، والخامسة والستين من كتاب "نظام الإسلام" للعالم والمفكر السياسي الشيخ تقي الدين التبهاني.

يقول رحمه الله: "أما الحضارة الإسلامية فإنها تقوم على أساس هو النقيض من أساس الحضارة الغربية، وتصويرها للحياة غير تصوير الحضارة الغربية لها، ومفهوم السعادة فيها يختلف عن مفهومها في الحضارة الغربية كل الاختلاف".

ونقول راجين من الله عفوهُ ومغفرته ورضوانه وجنته: في هذه الحلقة نتابع معكم حديثنا الذي كنا قد بدأناه عما كتبه الدكتور عبد المجيد عبد السلام المحتسب. في كتابه "طه حسين مفكرا؟" فهو - رحمه الله - من المتأثرين بفكر الشيخ تقي الدين التبهاني فيما يتعلق بموضوع "الحضارة والمدنية"، يقول المؤلف في الصفحتين الثالثة والثمانين والرابعة والثمانين: "وطه حسين يقول للمصريين: "إنكم تستعملون الأشكال المادية والأدوات والمخترعات التي صممتها وصنعتها أوروبا، فلماذا لا تزالون تنفرون وترفضون الحضارة الأوروبية؟! وهو في موقفه هذا حيث محاذل - أي مخادع - لأن الحضارة شيء، والمدنية والعلم شيء آخر. وهو يدعو في موضع من كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" إلى أن تكون أسباب الحضارة الأوروبية هي أسباب الحضارة المصرية؛ لأن المصريين - على حد زعمه المتهافت - لا يستطيعون أن يعيشوا بغير ذلك، فضلا عن أن يرقوا ويسودوا".

ويُعجب الدكتور عبد المجيد المحتسب على كلام طه حسين بقوله: وأنا أستطيع أن أؤكد أن المصريين يستطيعون أن يعيشوا بغير هذه الحضارة الأوروبية المنحطة؛ لأن أهل الصين وروسيا يعيشون بغيرها مثلا. وإن الأصول التي تقوم عليها هذه الحضارة مطبقة في مصر منذ سنة 1882م وحتى هذه اللحظة،

فَهَلْ تَرَى الْمِصْرِيِّينَ سَادُوا وَارْتَقَوْا؟! وَيُرَكِّزُ عَلَى فِكْرَةِ فَضْلِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ عَنِ الْحَيَاةِ انْسِجَامًا مَعَ الْأَفْكَارِ الرَّأْسَمَالِيَّةِ الَّتِي يَتَّبَعْنَاهَا بِإِظْهَارِ الْاِخْتِلَافِ بَيْنَ وَقَعِ رِجَالِ الدِّينِ النَّصَارَى، وَبَيْنَ وَقَعِ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ. فَفِي أُوْرُوبَا حَدَثَتْ خُصُومَةٌ عَنِيفَةٌ بَيْنَ الدِّينِ وَالْعَقْلِ، أَوْ بَيْنَ رِجَالِ الدِّينِ، وَرِجَالِ الْعَقْلِ. فَقَدْ كَانَ لِرِجَالِ الدِّينِ النَّصَارَى فِي أُوْرُوبَا نُظْمٌ وَقَوَانِينٌ، وَنُفُودٌ وَسُلْطَانٌ قَوِيٌّ، فَلَمْ يَكُنْ هُمْ بُدٌّ مِنْ أَنْ يُدَافِعُوا عَنِ هَذَا السُّلْطَانِ. أَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَقَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْ هَذَا الشَّرِّ. فَالْإِسْلَامُ لَا يَعْرِفُ الْإِكْلِيْرُوسَ أَوْ طَبَقَةَ رِجَالِ الدِّينِ. فَهَذِهِ السِّيَّاتِ الَّتِي جَنَّتْهَا أُوْرُوبَا مِنْ دِفَاعِ رِجَالِ الدِّينِ عَنِ سُلْطَانِهِمْ لَنْ نَجْنِبَهَا نَحْنُ إِلَّا إِذَا أَدْخَلْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ مَا لَيْسَ فِيهِ وَحَمَلْنَاهُ مَا لَا يَحْتَمِلُ، وَكَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي مِصْرَ: إِذَا كَانَ أَهْلُ أُوْرُوبَا قَدْ فَضَّلُوا الدِّينَ عَنِ الْحَيَاةِ، وَعِنْدَهُمُ الْإِكْلِيْرُوسَ أَوْ طَبَقَةَ رِجَالِ الدِّينِ، فَلِمَآذَا لَا نُسَوِّغُ فَضْلَ الدِّينِ عَنِ الْحَيَاةِ، وَلَيْسَ فِي الْإِسْلَامِ إِكْلِيْرُوسٌ؟! وَدَلِيلُهُ الْوَاهِي يَحْمِلُ الرَّدَّ عَلَيْهِ. فَإِذَا كَانَ أَهْلُ أُوْرُوبَا قَدْ فَضَّلُوا النَّصْرَانِيَّةَ عَنِ الْحَيَاةِ بِفِعْلِ تَسْضُلُطِ رِجَالِ الدِّينِ، وَالْإِنْجِيلِ لَيْسَ فِيهِ نِظَامٌ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَسِيرُونَ بِحَسَبِ التَّشْرِيْعِ الَّذِي بَقِيَ فِي التَّوْرَةِ، وَبِحَسَبِ الْقَانُونِ الرُّومَانِيِّ، فَمَا عُذْرُ الْمُسْلِمِينَ فِي فَضْلِ الْإِسْلَامِ عَنِ الْحَيَاةِ؟! وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ الْإِسْلَامَ نِظَامٌ شَامِلٌ مُتَكَامِلٌ قَائِمٌ بِرَأْسِهِ غَيْرٌ مُحْتَاجٌ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَيْسَ فِيهِ إِكْلِيْرُوسٌ. وَإِذَا كَانَتِ الْكَنِيسَةُ قَدْ وَقَفَتْ حَاجِزًا مَنِيعًا أَمَامَ تَفَكُّيرِ الْعُلَمَاءِ، وَنَتَائِجِ بُحُوثِهِمُ الَّتِي تُخَالِفُ مَا اسْتَقَرَّ لَدَى عُقُولِ رِجَالِ الْكَنِيسَةِ، فَمَا ذَنْبُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَقْفُوا ذَلِكَ الْمَوْقِفَ!؟

وَيَتَخَابَثُ طَهَ حُسَيْنٍ، وَيُوْهِمُنَا بِأَنَّهُ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَمُخْتَرَعَاتِهِ، وَبَيْنَ الْحَضَارَةِ الْأُوْرُوبِيَّةِ، يَقُولُ: "وَالْأَمْرُ السُّخْفُ أَنْ نَدْعُوَ إِلَى الْأَخْذِ بِأَسْبَابِ الْحَضَارَةِ الْأُوْرُوبِيَّةِ، وَقَدْ دَخَلَ الرَّادِيُو فِي الْأَزْهَرِ الشَّرِيفِ، وَقَامَ صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ الْأَسْتَاذُ الْأَكْبَرُ يَتَحَدَّثُ بِهِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فِي أَفْطَارِ الْأَرْضِ جَمِيعًا". وَالرَّادِيُو جِهَازٌ اخْتَرَعَهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْحَضَارَةِ، وَإِذَا كَانَ الرَّادِيُو قَدْ دَخَلَ الْأَزْهَرَ، فَمَا الْمَسْوَغُ لِلْأَخْذِ بِأَسْبَابِ الْحَضَارَةِ الْأُوْرُوبِيَّةِ؟! وَلِمَآذَا لَا نَأْخُذُ بِأَسْبَابِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَنَصْنَعُ الرَّادِيُو فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ؟! وَهَلْ هَذَا مُحَالٌ؟! وَيَقُولُ الدُّكْتُورُ عَبْدُ الْمَجِيدِ الْمَحْتَسِبُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِهِ (صَفْحَةُ 88): "طَهَ حُسَيْنٍ مُفَكِّرًا": "وَنَحْنُ نُسَلِّمُ بِأَنَّ عَقْلَ طَهَ حُسَيْنٍ صَارَ عَقْلًا أُوْرُوبِيًّا أَوْ فَرَنْسِيًّا لِسَبَبٍ بَسِيطٍ، هُوَ أَنَّهُ اقْتَنَعَ بِالْأَفْكَارِ الرَّأْسَمَالِيَّةِ وَتَبَنَّاها، أَوْ أَصْبَحَ مَضْبُوعًا بِالثَّقَافَةِ الْإِلْتِائِيَّةِ. وَهُوَ لَا يَحْطِطُ الْفِكْرِيَّ يُرِيدُ أَنْ يُعَمِّمَ، فَيَجْعَلَ الْعَقْلَ الْمِصْرِيَّ فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ عَقْلًا غَرِيبًا. وَإِذَا كَانَ الْعَقْلُ الْمِصْرِيَّ عَقْلًا أُوْرُوبِيًّا، فَلِمَآذَا هَزَمَ الْمِصْرِيُّونَ مَلِكَ فَرَنْسَا لَوِيسَ التَّاسِعَ فِي إِبَانِ الْحُمَلَاتِ الصَّلِيبِيَّةِ، وَأَسْرُوهُ فِي الْمِنْصُورَةِ، ثُمَّ افْتَدَى نَفْسَهُ؟! هَذَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى الْاِخْتِلَافِ بَيْنَ الْمِصْرِيِّينَ الْمُسْلِمِينَ، وَبَيْنَ الْفَرَنْسِيِّينَ الْخَاقِدِيِّينَ. وَيَقُولُ الْمَحْتَسِبُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - (صَفْحَةُ 90): وَتَأْتُرُ طَهَ حُسَيْنٍ وَاضِحٌ بَيِّنٌ بِكَاتِبِ قِبْطِيٍّ مِصْرِيٍّ كَانَ يُعَلِّي مِنْ شَأْنِ الثَّقَافَةِ "الْأَنْجِلُوسَكْسُونِيَّةِ" مُقَابِلَ طَهَ حُسَيْنِ الَّذِي كَانَ يُعَلِّي مِنْ شَأْنِ الثَّقَافَةِ الْإِلْتِائِيَّةِ. ذَلِكَ الْكَاتِبُ هُوَ سَلَامَةُ مُوسَى، وَكِتَابُهُ: "الْيَوْمُ وَالْعَدُو"

يُؤَكِّدُ فِكْرَةَ تَأَثُّرِ طَهْ حُسَيْنٍ بِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَفْكَارِ الَّتِي طَرَحْنَاهَا. وَيَبْلُغُ بِهِ الْحُمُقَ وَالْإِسْفَافَ مَبْلَغًا عَظِيمًا، وَيَأْبَى إِلَّا أَنْ يُسَجَّلَ لِأَبْنَاءِ الْأُمَّةِ تَارِيخُ التَّهْرِيجِ الْفِكْرِيِّ فِي مَرَحَلَةٍ مِنْ مَرَاجِلِ تَارِيخِهَا الْأَسْوَدِ، فَهُوَ شَعُوفٌ مَهْمُوسٌ بِالْحَضَارَةِ الْأُورُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا حَضَارَةُ الْعَالَمِ أَجْمَعِ الْآنَ. وَهَذَا كَذِبٌ وَتَزْوِيرٌ لِلوَاقِعِ، وَهُوَ يَحْتُ الْمِصْرِيِّينَ عَلَى أَنْ يَلْبَسُوا الثُّبَعَةَ دُونَ الطَّرْبُوشِ؛ لِأَنَّ الثُّبَعَةَ تَبَعَتْ فِي الْمِصْرِيِّينَ الْعَقْلِيَّةَ الْأُورُوبِيَّةَ، وَقَدْ نَسِيَ الْكَاتِبُ التَّالِيفُ سَلَامَةَ مُوسَى أَنَّ الطَّرْبُوشَ قَدْ نَقَلَهُ الْأَتْرَاكُ مِنَ التَّمَسَا إِلَى بِلَادِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ. أَيُّ أَنَّهُ أُورُوبِيٌّ الصَّنْعُ، فَلِمَاذَا يُرِيدُ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ أَنْ يَسْتَبْدِلُوا لِيَسَاسًا أُورُوبِيًّا بِلِيَاسِ أُورُوبِيٍّ، وَقَدْ صَرَخَ مَرَارًا بِأَنَّهُ يُحِبُّ كُلَّ مَا هُوَ أُورُوبِيٌّ؟! وَمَا عِلَاقَةُ الثُّبَعَةِ بِتَغْيِيرِ الْعَقْلِيَّةِ؟! وَالَّذِي يَدَّوُّ أَنْ عَقَلَ سَلَامَةَ مُوسَى كَانَ مُسْتَقَرًّا فِي قُبْعَتِهِ أَوْ فِي أَدْنِيهِ، فَلَوْ وَضَعْنَا ثُبَعَةً عَلَى رَأْسِ حِمَارٍ، هَلْ تَبَعَتْ الثُّبَعَةُ فِي هَذَا الْحِمَارِ الْعَقْلِيَّةَ الْأُورُوبِيَّةَ؟!!

وَيَتَحَامَلُ عَلَى الْأَزْهَرِ الشَّرِيفِ وَالْمِحَاكِمِ الشَّرْعِيَّةِ تَحَامُلًا شَدِيدًا، إِذْ يُسَمِّي مَا يُفُومُ بِهِ الْأَزْهَرَ بِتَدْرِيسِهِ بـ"ثَقَافَةِ الثُّرُونِ الْمُظْلَمَةِ" وَيَتَقَدُّ شَيْوخَ الْأَزْهَرِ بِأَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ يَلْبَسُونَ الْجُبَّ وَالْقَاطِنِينَ، وَلَا يَتَوَرَّعُونَ مِنَ التَّوَضُّعِ عَلَى قَوَارِعِ الطَّرِيقِ فِي الْأَزْيَافِ، وَلَا زَالُوا يُسَمُّونَ الْأَقْبَاطَ وَالْيَهُودَ "كُفَّارًا" كَمَا كَانَ يُسَمِّيهِمْ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَبْلَ أَلْفِ وَثَلَاثِمِائَةِ عَامٍ. هَذِهِ الْأَفْكَارُ تُقَطَّرُ حَقْدًا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَلَكِنْ تَحْتَ اسْمِ نَقْدِ شَيْوخِ الْأَزْهَرِ، وَالْأَزْهَرِ أَوَّلِ جَامِعَةٍ مُنَظَّمَةٍ فِي الْعَالَمِ. وَثَقَافَةُ الثُّرُونِ الْمُظْلَمَةِ كَمَا يُسَمِّيهَا هَذَا التَّالِيفُ الْوَقِيعُ كَانَتْ الثَّقَافَةَ الْأُولَى فِي الْعَالَمِ عِدَّةَ قُرُونٍ. وَالَّذِي يَتَوَضَّعُ عَلَى قَوَارِعِ الطَّرِيقِ فِي الْأَزْيَافِ أَرْقَى فِكْرًا مِنَ الَّذِي يُصَلِّي لِحَشْبَةِ لَا تَعْقِلُ، وَلَوْ كَانَ مُثَقَّفًا بِثَقَافَةِ أُورُوبِيَّةٍ مِثْلَ سَلَامَةَ مُوسَى. وَالَّذِي يُسَمِّي الْأَقْبَاطَ وَالْيَهُودَ "كُفَّارًا" هُوَ الْإِسْلَامُ، وَعَمْرُ ﷺ صَاحِبُ الرُّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ وَهَذِهِ التَّسْمِيَةُ مُفْهُومٌ وَقِنَاعَةٌ عِنْدَ كُلِّ مُسْلِمٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ بَيَّنَّهَا فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ. وَالْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ رَعْمَ أَنْفِ سَلَامَةَ مُوسَى وَبِطَانَتِهِ."

**طاسة تصليوت عكسًا**

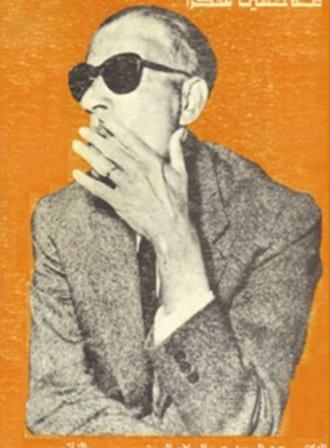
ابتدع على الإسلام ما ليس فيه وحسبناه ما لا يعقل (1). وكانه يريد أن يترك المسلمين في مصر؛ إذا كان أهل أوروبا قد فصلوا الدين عن الحياة وصنعوا الإكثروس أو طبة رجال الدين هناك لا نستح فعل الدين عن الحياة وليس في الإسلام إكثروس؟ وإليه الواعي يحمل الرد عليه. فإذا كان أهل أوروبا قد فصلوا التصارية عن الحياة بفعل تسلط رجال الدين. والإنجيل ليس فيه نظام. وإذا كانوا يسيرون حسب الشريع الذي يلي في التوراة ونسب القانون الروماني، فما علم المسلمين في فصل الإسلام عن الحياة؟ والمعروف أن الإسلام نظام شامل متكامل قائم برأسه غير محتاج إلى غيره وليس فيه إكثروس. وإذا كانت الكنيسة قد وقتت حاجزاً شاملاً أمام تفكير العلماء وتذلل عيونهم التي تحاف ما استقرت لدى طغول رجال الكنيسة فما ذنب علماء المسلمين الذين لم يلقوا ذلك الموقف؟!

وتخاطب له حسين، ويوحنا بأنه لا يفتقر بين العلم وحضراته وبين الحضارة الأوروبية، يقول: «ولما لم ينسخ أن نعرض إلى الأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية وقد دخل الزادير في الأزهر الشريف يوم صاحب القديسة الاستاذ الأكبر يتحدث به إلى المسلمين في أقطار الأرض صبيحة (2)».

والزادير حجازي آخره من العلماء. وليس هذا من الحضارة. وإنما كان الزادير قد دخل في الأزهر قداماً للتحذير بأسباب الحضارة الأوروبية!! وكذا لا أشد بأسباب الحضارة الإسلامية ونصيح الزادير في الوقت نفسه وهل هذا حال!!

(1) النظر لسائل الثقافة في مصر، ص 14 - ص 15 - ص 16.  
(2) سليل الثقافة في مصر، ص 14 - ص 15 - ص 16.

A1



الكتور عبد الحميد عبد السلام المحنص  
دار إحياء التراث العربي

تتلى في الحزبات الأربع، وقد زين لنا علم وجوده واقع صحيح طاً في الجمع الراسلي. وقد حين يقول المصريين: إنكم تصنعون الأكتال لادبة والأكوات والمطرحات التي صنعها وصنعها أوروبا، هذا لا يزالون تفرون وتفرون الحضارة الأوروبية؟ وهو في موقفه هذا حيث عائل. لأن الحضارة هي، والنادية والعلم هي. آخر.

ويجيبه في موضع من كتابه: سليل الثقافة في مصر، إلى أن يكون أسباب الحضارة الأوروبية هي أسباب الحضارة العربية، لأن المصريين - على حد زعمه المهافت - لا يستطيعون أن يجتروا بغير ذلك فضلاً عن أن يتركوا وشأنهم (1).

وإن استطع أن أؤكد أن المصريين يستطيعون أن يجتروا بغير علم الحضارة الأوروبية المحنص، لأن أهل الصين وروسيا يجتروا بغيرها مثلاً، وإن الاستول التي ترم عليها هذه الحضارة ملقة في مصر منذ سنة 1882 وحتى هذه اللحظة، قبل ترى المصريين سادوا وارتقوا؟! ويركز على فكرة فصل الدين الإسلامي عن الحياة اجتماعاً مع الأكتال الإنسانية التي يتبعها وإظهار الاختلاف بين واقع رجال الدين المصري وبين واقع علماء الإسلام. في أوروبا حدثت خصومة حيلة بين الدين والعقل أو بين رجال الدين ورجال العقل. فقد كان لرجال الدين المصري في أوروبا نظم وقوانين وقواعد وسلطان قوي. فلم يكن لهم يد من أن يبدعوا عن هذا السلطان. أما المسلمون فقد جعلهم الله من هذا الشر في الإسلام لا يعرف الإكثروس أو طبة رجال الدين. فهذه البيئات التي جعلتها أوروبا من دفاع رجال الدين عن سلطانهم إن نجحنا نحن إلا إذا

(1) سليل الثقافة في مصر، ص 14 - ص 15 - ص 16.

A2

أيها المؤمنون:

نكتفي بهذا القدر في هذه الحلقة، وللحديث بقيّة، موعِدنا معكم في الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى، فإلى ذلك الحين وإلى أن نلقاكم ودائماً، نتركم في عناية الله وحفظه وأمنه، سائلين المولى تبارك وتعالى أن يعزنا بالإسلام، وأن يعز الإسلام بنا، وأن يكرمنا بنصره، وأن يقّر أعيننا بقيام دولة الخلافة الراشدة الثانية على منهاج النبوة في القريب العاجل، وأن يجعلنا من جنودها وشهودها وشهائها، إنه ولي ذلك والقادر عليه. نشكركم على حسن استماعكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.